فقيه الأندلس
(ابن حزم)

أ/ عبد الله كمال نصير (*)

أجمل بتقليب صفحات التاريخ! ففيها ما فيها من الأخبار والعبر، وضائعٌ مستقبلُه من لم ينتفع بما وصله عن أسلافه، ولو لم يكن في التاريخ إلا الاعتبار بمصائر السابقين لكفت من عبرة، ولقد حثَّ القرآن الكريم على السير في الأرض والاعتبار بمصائر السابقين فقال -تعالى-:

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾

(فاطر: ٤٤)

ونحن الآن نقلب صفحات من تاريخنا العظيم؛ لنقف على سيرة علم من أعلام الفكر الإسلامي ليكون لنا نبراسًا نهتدي فيه بهديه، وسراجًا يُنير لنا ما حلك من غوابر طرقنا، فنترسم فيه طريق الفلاح، ونقفو خلفه أفقًا نحو مستقبل مضَّاء بنور العلم واليقين.

إننا اليوم نطالع سيرة علم من علماء بلاد الأندلس، هو ابن حزم الأندلسي (٣٨٤-٤٥٦هـ/ ٩٩٤ - ١٠٦٤م). فما هو نسبه؟ وما هي سيرته؟ هذا ما سنحاول التعرف عليه سويًا عبر تلكم السطور القادمة.

نسبه:

هو كما قال في حقه الإمام الذهبي عند ذكر اسمه والتعريف به:

الإمام الأوحد، البحر، ذو الفنون والمعارف أبو محمد، علي بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب بن صالح بن خلف بن معدان بن سفيان بن يزيد، الفارسي الأصل، ثم الأندلسي القرطبي اليزيدي، مولى الأمير يزيد بن أبي سفيان بن حرب الأموي -رضي الله عنه- المعروف بيزيد الخير ... الفقيه الحافظ، المتكلم، الأديب، الوزير الظاهري، صاحب التصانيف.

(*) محرر بمجلة الأزهر.

كان جده يزيد مولى للأمير يزيد أخي معاوية، وكان جده خلف بن معدان هو أول من دخل الأندلس في صحبة ملك الأندلس عبد الرحمن بن معاوية بن هشام، المعروف بالداخل.

نشأته وتربيته:

ولد بقرطبة في ٣٠ من رمضان عام ٣٨٤هـ، ٧ نوفمبر ٩٩٤م.

نشأ في تنعُّم ورفاهية، ورُزق ذكاءً مفرطًا، وذهنًا سيَّالًا، وكتبًا نفيسة كثيرة، وكان والده من كبراء أهل قرطبة، قام بالوزارة في الدولة العامرية، وكذلك وَزر في شبيبته، وكان قد مهر أولًا في الأدب والأخبار والشعر، وفي المنطق وأجزاء الفلسفة.

حياته العلمية:

كان -رحمه الله- مجتهدًا مطلقًا، وإمامًا حافظًا، وكان شافعي الفقه، فانتقل منه إلى الظاهرية، وافق عقيدة السلف في بعض الأمور من توحيد الأسماء والصفات وخالفهم في أخرى، وكل ذلك كان باجتهاده الخاص، وله ردود كثيرة على الشيعة والخوارج وغيرهم من الفرق والملل الأخرى.

أصَّل ابنُ حزم ما يعرف عادة بالمذهب الظاهري كثير من الباحثين يشيرون إلى أنه كان صاحب مشروع كامل لإعادة تأسيس الفكر الإسلامي من فقه وأصول فقه.

شيوخه:

أخذ الحديث عن يحيى بن مسعود، وأخذ الفقه عن الشافعي عن شيوخ قرطبة، وأخذ المنطق عن محمد بن الحسن المذحجي القرطبي، وغيرهم من علماء الأندلس.

منهم: يحيى بن مسعود بن وجه الجنة؛ صاحب قاسم بن أصبغ، فهو أعلى شيخ عنده، ومنهم أبي عمر أحمد بن محمد بن الجسور، ويونس بن عبد الله بن مغيث القاضي، وحمام بن أحمد القاضي، ومحمد بن سعيد بن نبات، وأبي عمر أحمد بن محمد الطلمنكي.

وممن تتلمذ على يده، المؤرخ محمد بن فتوح بن حميد، أبو عبد الله الحميدي الأندلسي، وهو من اختص بنشر كتب ابن حزم وعلمه وصاحب الجمع بين الصحيحين.

أقوال العلماء فيه:

● قال أبو حامد الغزالي: وجدتُ في أسماء الله -تعالى- كتابًا ألفه أبو محمد بن حزم الأندلسي يدل على عِظَم حفظه وسيلان ذهنه.

● وقال الإمام أبو القاسم صاعد بن أحمد: كان ابن حزم أجمع أهل الأندلس قاطبة لعلوم الإسلام، وأوسعهم معرفة مع توسعه في علم اللسان، ووفور حظه من البلاغة والشعر، والمعرفة بالسير والأخبار.

● وقال أبو عبد الله الحميدي: كان ابن حزم حافظًا للحديث وفقهه، مستنبطًا للأحكام من الكتاب والسنة، متفننًا في علوم جمة، عاملًا بعلمه، ما رأينا مثله فيما اجتمع له من الذكاء وسرعة الحفظ، وكرم النفس والتدين، ما رأيت من يقول الشعر على البديهة أسرع منه.

● قال اليسع ابن حزم الغافقي وذكر أبا محمد فقال: أما محفوظه فبحر عجاج، وماء ثجاج، يخرج من بحره مرجان الحكم، وينبت بثجاجه ألفاف النعم في رياض الهمم، لقد حفظ علوم المسلمين، وأربى على كل أهل دين، وألف (الملل والنحل).

● قال الشيخ عز الدين بن عبد السلام: ما رأيت في كتب الإسلام في العلم مثل (المحلى) لابن حزم، وكتاب (المغني) للشيخ موفق الدين.

● وقال ابن خلكان: كان حافظًا عالمًا بعلوم

الحديث مستنبطًا للأحكام من الكتاب والسنة ... وكان متفننًا في علوم جمة عاملًا بعلمه، جمع من الكتب في علم الحديث والمصنفات والمسندات شيئًا كثيرًا وسمع سماعًا جمًا وألف في فقه الحديث كتابًا.

أقوال ابن حزم:

- «إذا حضرتَ مجلسَ علا فلا يكن حضورُكَ إلا حضور مُستزيد علمًا وأجرًا، لا حضور مُستغنٍ بما عندكَ، طالبًا عثرة تشيّعها أو غريبة تشنّعها؛ فهذه أفعال الأرذال الذين لا يفلحون في العلم أبدًا».
- «بابٌ عظيمٌ من أبواب العقل والرّاحة؛ وهو اطّراحُ المبالاة بكلام النّاس، واستعمال المبالاة بكلام الخالق -عزّ وجلّ- بل هذا بابُ العقل كلّه والرّاحة كلّها».
- «من قدّر أنه يسلم من طعن الناس، وعيبهم فهو مجنون».
- «لا آفة على العلوم وأهلها أضرُّ من الدُّخلاء فيها وهم من غير أهلها؛ فإنّهم يجهلون ويظنُّون أنهم يعلمون، ويُفسدون ويقدرون أنهم يصلحون».
- «من ساوى بين عدوه وصديقه في التقريب والرفعة لم يزد على أن زهد الناس في مودته، وسهل عليهم عداوته، ولم يزد على استخفاف عدوه له، وتمكينه من مقاتله، وإفساد صديقه على نفسه، وإلحاقه بجملة أعدائه».

مصنفاته العلمية:

شملت مصنفاته العديد من العلوم الشرعية واللغوية والفلسفية والتاريخ والأنساب والسياسة، وإليك طرف من بعض كتبه:

الفصل في الملل والنحل، المحلَّى، طوق الحمامة، الإحكام في أصول الأحكام، مداواة النفوس، التلخيص لوجوه التخليص، الرسالة الباهرة، ملخص إبطال القياس والرأي والاستحسان والتقليد والتعليل، الإيصال إلى فهم كتاب الخصال، الخصال الحافظة لجمل شرائع الإسلام، ما انفرد به مالك وأبو حنيفة والشافعي، اختلاف الفقهاء الخمسة مالك وأبي حنيفة والشافعي وأحمد وداود، التصفح في الفقه، الإملاء في شرح الموطأ، در القواعد في فقه الظاهري، الإجماع، الرسالة البلقاء، الرد على من اعترض على الفصل، اليقين في نقض تمويه المعتذرين عن إبليس وسائر المشركين، الرد على من كفر المتأولين من المسلمين، مختصر في علل الحديث، التقريب لحد المنطق بالألفاظ العامية، الاستجلاب، نسب البربر، نقط العروس.

وفاته:

في ٢٨ شعبان ٤٥٦هـ، الموافق ١٥ أغسطس ١٠٦٤م. في أرض أبويه (كاسا مونتيخا) قرية (لبلة) غربي الأندلس، من نواحي مدينة (ولبة).

للاستزاده

(١) موسوعة أعلام الفكر الإسلامي - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

(٢) سير أعلام النبلاء للذهبي.

(٣) الأعلام للزركلي.